الأبنـ ـ ـ ـاء

مقتبسة عن الكتاب الثاني لبيرل بك

(الأبناء هي تكملة للأرض الطيبة . ووانج النمر هو الإبن الأصغر لـ وانج لانج.)

"سأجعل من ولدي حربيا ممتازا" أمنية تغلغلت في أعماق وانج النمر منـذ ميلاد ابنه الوحيد. ما اسعده! ان له ولدا من لحمه ودمه يـضيف الـى فتوحاتـه وانتصاراته الفتح والنصر الجديد.

ماأحيلى لحظة يمتطي فيها وانج النمر وابنه جوادين أصيلين متماثلين فـي قوتهما ولونهما الأحمر العميق، ويرتديان معطفين أجنبيي النسيج بـأزرار ونجـم مذهبة على الصدر والكتف، وقلنسوتين عليهما شارة النمر! وما ارقها موسيقى في أذني الوالد والناس يتهامسون أو يصيحون، ويقفون محملقين في الجنود المـارة: "أنظروا الى القائد الحربي الشيخ وابنه القائد الحربي الصغير! كأنهما قاطعين فـي فم رجل."

وفي ربيع ابن وانج النمر الخامس عشر يتقدم من الوالد رجـل اسـتأجره وانج النمر لتدريب ابنه على الفنون الحربية: "ياقائدي انني دربت ولـدك القائـد الصغير ما اقدر عليه، وعليه منذ اليوم أن يدخل المدرسة الحربيـة حيـث يجـد زملاء يشترك واياهم في التدريب."

ورغم انتظار وانج النمر لهذا اليوم يخيل اليه كأنما عشرات السنين مرت كلمح البصر. ويرسل من يحضر له الفتى. ويشعر فجأة بأنه شيخ منهوك القـوى، فيجلس على مقعد حجري تحت شجرة زيزفون ينتظر ولده.

ويحضر الفتى بخطواته الثابتة البطيئة ويرمقه وانج النمر بفضول من يراه لأول مرة. أصبح الصبي طويلا كرجل، واتخذ وجهه سمة الـصلابة، وأطبقـت شفتاه بصرامة. ويذكر وانج النمر باستغراب كم نضب صبره في الماضي ينتظر ابنه لينمو الى رجل. وكم بدت طفولته لانهاية لها. انه اليوم يقفز قفزة واحدة مـن

طفولته الى هذه الرجولة الحديثة. ويخاطب المدرب: "وهل أنت واثق بـأن تلـك المدرسة هي الفضلى؟"

ويهز المدرب رأسه مؤكدا، ويحملق وانج النمر بولده فـي ألـم: "وأنـت ياولدي هل ترغب في الذهاب؟"

لم يكن من عادة وانج النمر سؤال ولده عما يرغب ، فلقد رسم له الطريق التي يريدها له، ولكنه أمل واهن في نفسه يتخذه عذرا للرفض فيما لو أبى الولـد الذهاب..

فيجيب الفتى وهو يقتلع أنظاره عن زنابق بيضاء نمت عند ساق شـجرة الزيزفون: "ان كنت أستطيع الإلتحاق بمدرسة أخرى أفعل ذلك راضيا."

ولم يسر وانج النمر للجواب مطلقا فجمع حاجبيـه وجـذب ذقنـه وقـال بغضب: "واية مدرسة تلتحق بها ان لم تكن المدرسة الحربية؟ وأية فائدة تكتـسب من الكتب لمن سيغدو رجل حرب؟"

ويجيب الفتى خافض الصوت: "هناك مدارس نما الي أمرها يـتعلم فيهـا الشبان حرث الأرض وكل ما له علاقة بالأرض."

ويدهش وانج النمر لمثل هذه الحماقة.. انه لم ينبأ بمدرسة كهذه، ويـزأر فجاة: "ماهذه الحماقةظ ان كان هناك مدارس كهذه فعلى كل فـلاح اذن أن يـتعلم فيها الحرث والزرع والحصد. واني أذكر جيدا ما اعتاد وادي قوله بـأن الرجـل بغير حاجة لدراسة الفلاحة ، ويكفيه أن ينظر الى ما يفعله جاره."

واستمر بخشونة قاسية وبرودة "ولكن أي شأن لي ولك بهذا؟ نحن قـواد حربيون، فإما أن تلتحق بمدرسة حربية أو لامدرسة على الإطلاق وإنما تبقى هنا وتقود جيشي من بعدي."

ويتنهد الإبن ويتراجع قليلا كما يفعل دائما إذ يزأر وانج النمر معنفا ايـاه فيجيب هادئا في صبر عجيب: "اذهب اذن الى المدرسة الحربية."

وكان في هذا التصابر ما أغاظ وانج النمر رغم الموافقة ، فيحدق في ولده وهو يفتل شاربي النمر ويتمنى لو يتكلم ولده، ويعلم أن سيغضبه لو سمع ما يجول

في صدره فيصيح: "هيئ نفسك للرحيل غدا." ويحيي الفتى والـده كمـا درب أن يفعل ويعود على عقبيه خارجا وبدون كلمة .

ويترك وانج النمر في الصباح فراشا لم يذق عليه طعم النـوم والراحـة، ويصحب ولده بعض المسافة وقد ثقل عليه فراق لابد منه ثم يتوقف ويقول بأسى : "يابني، قيل لي منذ العهود القديمة بأن الرجل لو رافق صديقه ثلاثـة آلاف ميـل فستأتي حتما لحظة الفراق فوداعا.

ويستوي على حصانه شديد الصلابة يراقب الفتى ينحني بخضوع مودعا، ويقفز الى سرج حصانه وينسحببرفقة خمسين من رجاله والمدرب. ويلوي وانـج النمر عنان فرسه الى المنزل الخاوي لا يلتفت ليرى ولده.

ثلاثة أيام يستسلم فيها وانج النمر لحزنه حتى يعود آخر رجل رافق ولده، ويعود الرسل متتابعين كل يحمل تقريره الخاص فمن قائل : "انه أشد مرحا عمـا تعهده فيه. ترجل مرتين عن جواده وخطا الى حقل فيه مزارع وتحدث معه."

ويسأل وانج النمر باستغراب : " وماذا لديه من حديث مع هذا الرجل؟"

ويجيب الرجل أمين الذاكرة: "سأله عن نوع البذور التي يستعملها وتوقف ليراها، ونظر الى الثور كيف ربط بالمحراث وضحك منه رجاله فلم يبـال، بـل حملق باهتمام في الثور وكيفية ربطه."

وتبلبل وانج النمر وقال: "لست أفهم لم يبالي رجل الحرب بشد ثور الـى محراث، ونوع بذار.ويتوقف ثم يردف نافذ الصبر: "أما لديك شيء آخر تقوله؟"

ويفكر الرجل قبل أن يجيب: "وفي الليل مر بفندق حيـث تنـاول بـشهية طعاما مكونا من الخبز واللحم والأرز والسمك، واحتسى كأسا واحدة من النبيـذ. وهناك غادرته لأوافيك بخبره.

ويتتابع الرسل يحدثون وانج النمر عن ولده حتى يوم وصل الفتى النهـر وركب زورقا يقله الى البحر، ولم يعد بوسع رجاله متابعته.

* * *

ويشغل وانج النمر عن ولده أمر يقض مضجعه، إذ عاد جواسيسه بأخبار غريبة مزعجة من الجنوب "سمعنا باستعداد لحرب عجيب أمرها في الجنوب، انها نوع من انقلاب وثورة ، وما هي بالحرب العادية بين القواد الحربيين.

ويجيب وانج النمر بلهجة تأنيب.انه عظيم الثقة بنفسه هذه الأيام: "لاجـدة في هذا.. عندما كنت شابا سمعت بثورة شبيهة بهذه فدخلت المعمعة أحسب أننـي اقوم بعمل نبيل، ولكنها رغم ذلك كانت حربا عادية. فبينما يتحد القواد الحربيـون لفترة في تقويض الملكية تراهم بعد انتصارهم وثلّ العرش يتفرقون شيعا كل يعمل لصالحه مرة أخرى.

"كلا انها حرب من نوع جديد، تدعى حرب الأمة، حرب في مصلحة عامة الشعب."

ويرفع وانج النمر حاجبيه السوداوين الغزيرين مستحمقا جواسيسه ويـسأل مرتفع الصوت: "وهل يقوى عامة الشعب على شن حرب؟ الديهم البنادق؟ أم أنهم يشنونها بالعصي والمطارق والمناجل والفؤوس؟"

وحدجهم بنظرة أفقدتهم التوازن فسعلوا ونظر بعضهم الى بعض الـى أن اعتذر أحدهم بذلة:

"ولكننا لانحدث الا بما سمعناه."

"حقا هذا واجبكم. غير أن ما سمعتموه لغوا وهذرا."

وصرف وانج النمر الرجال ولكنه لم ينس ما قيل بل وطّن نفسه على استقصاء الخبر الصحيح.

* * *

ها هو ذا وانج النمر في يوم من أيام الخريف يصحب نفرا مـن جيـشه يستعرض رقعة ممتلكاته، ويرى الى كل شأن قد سوي قبل عودة ابنه. سيتنحى له عن القيادة ويهبه جيشه الكبير ، فقد غدا رجلا في العشرين بينما بلغ هو الخامسة والخمسين. وتحصي عينه الباطنة الناس والرض والعمارات التي ملكها ابنه، وما قد يجبى وينتج من خير وفير.

وتتحرك في نفسه رغبة في توسيع ما يملك ما دام له ابن يرث من بعده. وفي ليلة شتاء بعد أن احتسى وانج النمر حتى الثمالة كؤوس الخمر يبتغي الدفْ، يستيقظ على وقع حوافر خيل واقدام جنود في ساحة المنزل. وقبل أن يدرك فيما اذا كان في حلم أم يقظة، يدخل أحدهم هاتفا به: "القائد الصغير ولدك هنا!"

ويفرك وانج النمر عينيه ويتمتم: "حسبته في غمرة أحلامي عدوا."

ويصرع عنه الكرى ليهرع الى الساحة فيرى ولده بين أضواء المشاعل تمسكها أيدي الجنود قد ترجل عن فرسه ، فبنحني لوالده، ويرميه بنظرة غريبة فيها مقت. ويرتجف وانج النمر ويجمع معطفه ويسأل ولده بدهشة: "لم أنت هنا يا ولدي؟ وأين مدربك؟"

ويجيب الشاب: "انفصلت عنه."

ويدرك وانج النمر أن في الأمر توترا لايحسن أن يطلع عليه الجنود فيصرفهم، ويدعو ابنه الى غرفته. ولكن الشاب لا يجلس. ويعاينه الوالد من الرأس الى القدم كأنما لايعرف هذا الشاب ابنه، ويساله أخيرا بهدوء: "ماهذا اللباس الغريب الذي ترتديه؟"

ويرفع الشاب راسه ويجيب بهدوء: "انه لباس جيش الثورة."

ويدرك وانج النمر مافعل ولده، ويدرك أن هذا لباس الحرب الجديدة التي تشن عليه وعلى القواد الحربيين ويصرخ:

"هذا جيش عدوي."

ويجلس فجأة إذ يشعر بأنفاسه تختنق وغضبه المجرم القديم يغلي في عروقه، ويشهر سيفه القاطع ويزأر: "أنت عدوي وعلي أن اقتلك يا ولدي."

ويسرع لهاثه.. ان غضبه اليوم لعجيب. وتنتفخ أوداجه، أما الشاب فلا يتراجع كما كان يفعل في طفولته، بل يقف هناك بهدوء يدفع يديه ويفصم عرى معطفه، ويعري صدره أمام والده. ويتكلم بمرارة العلقم: "أعلم أنك تريد قتلي. هذا دواؤك الوحيد القديم."

ويحدق في وجه والده بنظرة ميتة الشعور: "أقتلني اذن" ويقف مستعدا صلب الوجه هادئه.

لم يقو وانج النمر على قتل ولده، ولو أنه يعتقد في قتله الحق والـصواب، ولو انه يعلم بأن الرجل يقتل ابنا يخونه، فلا يجرمه القـانون. ويـشعر بغـضبه يتصبب منه عرقا، فيقذف بسيفه الى الأرض ويتمتم مواريا شفتيه بيده.

"انني ضعيف، دائما ضعيف، أوهى من أن أكون قائدا حربيا."

ويرى الشاب ما فعل والده فيستر صدره ويتكلم بلهجة من يعالج أمرا مـع شيخ مسن: "والدي! أظنك لم تدرك الحقيقة. لاأحد مـنكم أيهـا الـشيوخ يحـاول غدراكها. إنكم لاتنظرون الى الشعب كوحدة ، وكم هو ضعيف ومهان."

وينفجر وانج النمر في ضحكة عالية متكلفة ما عرفها الإبن فـي حياتـه، ويحس بها طاعنة كسلاح غريب ، وتوقظ فيه غضبا لم يلحظه الوالد فيصيح فجأة: "اتعلم ما ندعوك؟ فوضوي.. رئيس عصابة.. لو يعلم بك رفاقي لاعتبروك خائنا، ولكنهم لايعرفون حتى اسمك- فما انت الا قائد حربي صغير في بلدة صغيرة."

هكذا تكلم ابن وانج النمر، من كان صابرا طوال حياته، وينظر الى والـده ويشعر في اللحظة نفسها بالخجل فيصمت، وتثب الدماء قانية الى عنقه ويغـضي بصره، ويحل حزامه ببطء ويدعه يرتمي على الأرض.

ولم يجب وانج النمر .تعبر كلمات ابنه فهمه فتنسلّ منه قـوة لـن تعـود ويتردد صدى الكلمات في فؤاده. نعم لم يكن الا قائدا حربيا صـغيرا فـي بلـدة صغيرة. ويتمتم بضعف لاشعوري: "ولكنني لم أكن رئيس عصابة!"

ويبلغ الخجل بالولد مداه فيسرع الى الإجابة: "كلا. كلا. كـلا." وليخفـي خجله يردف: "يا والدي علي أن أخبرك بأنني سأتوارى بعيدا عندما يصل جيـشنا المنتصر الى الشمال. ان قائدي دربني هذه السنوات ويثق بي، ولكنه لن يغفر لي بسهولة أنني انتخبتك يا والدي!"

ويرمق الشاب والده بنظرة فيها إشفاق خفي. ولا يجيب وانج النمر كأنمـا لم يصغ الى ما قيل، ويستمر الشاب بقوله: "ساتوارى في منزلنا الأرضي القـديم، فان بحثوا عني فلن يروا سوى مزارع عادي لاابن قائد حربي." ويبتـسم الـشاب آملا أن يعزي والده.

ولكن وانج النمر يصر على صمته. انه لم يدرك بعد ما عنى ولده إذ قال "أنني انتخبتك ياوالدي." انه يشعر كأنما اجتاز ضبابامشى فيه زمنا طويلا. وينظر الة ولده ويرى فيه رجلا لايعرفه.

حام وانج النمر بولده ورسمه بإخلاص صورة ترضي أحلامه، وها هو يقف أمامه فلا يعرفه وانج النمر ، فهو ليس الاّ مزارعا عاديا، واذ ينظر اليه يشعر بإحساس عاجز يدب فيه، نفس إحساس عاجز خبره في حداثته إذ كان يعيش في المنزل الأرضي.

ان والده، رجل الأرض، مرة أخرى يضع يده المعفرة بالتراب على كتف ولده.

ويشيح وانج النمر بوجهه عن ولده ويهمس لنفسه: "لاولد لقائد حربي، كل لما خلق له."

* * *